قصة قصيرة

البطل الذي لم يُهزم

د. محمد أجمل *

لم يكد أبو شابي يتجاوز العاشرة من عمره، حتى لاح في عينيه بريقٌ تجاوز حدود الطفولة، بريقٌ ذكّر كلَّ من رآه بذلك الوميض العذب في عيني بطله المحبوب *ذارميندار* ذلك الممثل الأسطوري الذي أسر قلوب الملايين من عشّاق السينما الهندية على مدى عقود، وجعل القوة قرينةَ الرحمة، والشجاعةَ رديفةَ الطيبة.

كان أبو شابي يعيش في قرية وادعة على أطراف ولاية بيهار، حيث تتعانق البيوت كالإخوة، وتتنفّس الأزقّة بضحكات الصغار حتى تغيب الشمس خلف أشجار النخيل الوارفة. غير أنّ في هذا الصبي سرًّا يميّزه عن أقرانه؛ فقد كان قلبه معلّقًا بعالم البطولة، وعقله مأخوذًا بتلك الحكايات التي تصنع من الإنسان أسطورة، وتخلّد في الذاكرة وجوهًا تُضيء رغم تعبها، وقلوبًا تمسح الدمع قبل أن يسيل.

وكان بطل تلك الحكايات، في نظره، هو الممثل ذارميندار بملامحه النبيلة وابتسامته التي تجمع بين الحزم والرقة في آنٍ واحد.

في مساءٍ خريفيٍّ ساكن، كانت أوراق الشجر تتهادى عند نافذة غرفة الجلوس، حيث جلس أبو شابي بجانب أخيه، ينتظران عرض فيلمهما المفضّل لذلك النجم الذي حفِظا حواراته عن ظهر قلب. غير أنّ صمتًا غريبًا خيّم على المكان؛ فالأخ، الذي اعتاد أن يحدّث الشاشة كأنّها كائن حيّ، بدا واجمًا هذه المرّة. التفت إلى أخيه الصغير، ومسح على شعره بحنان، ثم قال بصوتٍ خافت:

يا أبا شابي... ذارميندار رحل عنا اليوم.

دُهش الصبي، وتوقفت أنفاسه كأنّ الزمن جمد له في تلك اللحظة.

كان يظنّ أن الأبطال لا يموتون، وأنّ الخلود رداءهم. فكيف يرحل من كان يظنّه لا يُقهر؟

---

* الأستاذ المساعد بمركز الدراسات العربية والإفريقية، جامعة جواهر لال نهرو، نيو دلهي.

رفع عينيه المبللتين وسأل:

أخُويا, هل يموت الأبطال؟

تبسّم أخوه بحزن وأسَى وقال:

الأجساد تموت يا صغيري, أما أرواح الأبطال فتبقى حيّة, تنتقل من شاشة السينما إلى قلوب المعجبين بهم.

نام أبو شابي تلك الليلة محتضنا وسادته كأنها ذكرى بعيدة. رأى في منامه ذارميندار واقفًا في حقل فسيح, يبتسم له ابتسامة من يورّث الحلم, ويؤمي إليه لأن يقترب. فلما دنا, وضع يده على كتفه, وقال بصوت رقيق كأنه النسيم اللطيف:

بطولتك تبدأ حين تؤمن أنك قادر.

ثم غاب شيئًا فشيئًا, كما يغيب الليل خلف الجبال.

استيقظ الفتى في الصباح, وفي صدره شعور غريب, كأنّ وصية ذارميندار بشأن البطولة استقرّت على كتفه هو. وقف أمام المرآة طويلًا, ثم قال لنفسه:

سأكون قويًّا مثله... ولكن بقلب أرحم.

ومنذ ذلك اليوم بدأ رحلته الصغيرة نحو العظمة. كان ينهض قبل طلوع الشمس, يجري حول القرية, ويقلّد حركات الملاكمة والكاراتيه, يتعب ويثابر حتى التحق بفريق المدرسة. غير أنّه كان يعلم أنّ القوة الجسدية وحدها لا تصنع بطلًا؛ فالقوة الحقيقية تكمن في الروح ولا في الجسد. وكان أخوه يراقبه بعين الرضا, يرى فيه نبتة الرجولة تنمو ببطء, ويسعد لأنّ بذرة الحلم الأولى قد وجدت أرضها.

في المدرسة, كان أبو شابي محببا بين الجميع, كريم النفس, يشارك زملاءه طعامه, ويساعد الضعفاء, ويبتسم حتى في المواقف الصعبة. ولكن بين أولئك الصبية من فهم القوة على نحو آخر؛ ضجيج وصراخ وتنمّر لا ينتهي.

وكان فيهم فتى يدعى وصيًّا, أطول قامة من أبي شابي, وأكثر صخبًا, يستعرض قوّته على من دونه, كأنّ في داخله خوفًا يختبئ خلف الغطرسة.

وذات يوم، بينما كان أبو شابي يلعب مع صديقه تصمير في فناء الدار، جاء وصيّ فدفع تصمير بقوة فسقط على الأرض.

صرخ الصغير قائلًا:

لِمَ فعلتَ لي هذا؟ ماذا فعلت لك؟

ضحك وصيّ وقال باستهزاء:

ـ لأنك صغير... ولأنني أستطيع أن.....

عندها تقدّم أبو شابي بخطوات واثقة، وقلبه يخفق كطبل الحرب. وقف أمامه وقال بهدوء تام:

ليست القوة الحقيقية أن تُسقط الآخرين، بل هي أن تساعدهم على الوقوف.

بهت وصيّ من وقع الكلمات، وسرى الصمت في المكان، كأنّ الجميع ينتظر ما سيحدث.

قال وصيّ ساخرًا:

وماذا ستفعل يا بطل الأفلام؟ يا ذارميندار الصغير؟

لم يرد عليه، بل مدّ يده لصاحبه يساعده على النهوض، ثم التفت إلى وصيّ وقال في نغمة هادئة:

من يطلب الاحترام لن يجده بإهانة الآخرين.

كانت كلماته كنسمة باردة بعد عاصفة هوجاء، لا تهديد فيها ولا غضب، بل وقار يشبه السكينة.

ومنذ ذلك اليوم تغيّرت نظرات الصغار إليه؛ صاروا يرون فيه مثلا يُحتذى به، وينظرون إليه بهيبة ممزوجة بالمحبة.

وفي المساء قصّ ما حدث على أخيه، فأصغى إليه وقال:

ـ يا أبا شابي، الشجاعة هي أن تواجه الظلم، لكن الرحمة هي أن تمنع نفسك من أن تكون ظالمًا مثله. وذاك سرّ حبّ الناس لذارميندار، فقد جمع بين القوّة والرحمة.

ثم أردف بصوت عميق:

ليست البطولة أن تكون قويًّا يا صغيري، بل أن تعرف متى تستخدم قوّتك.

استقرّت تلك الكلمات في سويداء قلبه, كالنور الذي لا يُرى ولكن يضيء من الداخل.

وفي تلك الليلة كتب على ورقة صغيرة:

حبيبي نارميندار

رحلتَ... وما رحل الضوءُ عن دربي,

ولا انطفأ الحلمُ في صدري.

تركتَ فيَّ قوّةً من روحك,

وشجاعةً تضيءُ عتمتي,

وقلبًا علّمتَه ألّا يعرفَ القسوة,

ولا يردَّ الشرَّ بالشرّ.

سأكون بطلًا... لا لأقاتل,

بل لأحمي من أحبّ,

وأزرع في القلوبِ طمأنينةً.

علّمتني أن العظمةَ ليست في اليدِ التي تضرب,

بل في القلبِ الذي يُحبّ.

ثم طوى الورقة ووضعها تحت وسادته, كأنه يبعثها إلى السماء مع كل حلم.

مرّت الشهور, وبرز أبو شابي عَلَمًا في مدرسته. لم يكن الأقوى جسدًا, لكنه كان الأثبت روحًا. كان التلاميذ يلجأون إليه لفض نزاعاتهم, فيحلّها بكلمة وابتسامة, حتى غدت كلمته مرجعًا بينهم, وهيبته ملاذًا من الفوضى.

قالت له معلمته يومًا:

ـ يا أبا شابي, فيك روح قائد, وقلب لا يعرف الخوف.

وقال له مدرب الرياضة وهو يربّت على كتفه:

إنك ملاكم بارع يا فتى, ولكن ما يجعلك عظيمًا هو قلبك.

وذات يوم، نشب خلاف كبير بين بعض الطلاب، فتضاربت الأيدي وتعالت الأصوات، وكان وصيّ في قلب العاصفة. اقترب أبو شابي منهم بخطوات ثابتة، ووقف بينهم باسطًا ذراعيه وقال بصوت عالٍ:

توقفوا! هذا الصخب لن يُصلح شيئًا!

لكن أحدهم دفعه دون قصد فسقط أرضًا. ساد الصمت.

هل سيغضب؟ هل يثور؟ هل يضرب؟

نهض الفتى، نفض الغبار عن لباسه، وقال بهدوء عجيب:

لسنا عدوَّين، نحن زميلان. إن لم نهزم غضبنا، فلن نهزم شيئًا في الحياة.

تلك الكلمات كانت كالماء على النار، أطفأت الغضب وسكنت النفوس.

تقدّم وصيّ، ووضع يده على كتفه، وقال بصوت متهدّج:

أنت حقًا "ذارميندار" الصغير.

ابتسم أبو شابي، وأحسّ أن الحلم القديم قد تحقق. لم يعد بحاجة إلى بطل من عالم الخيال على الشاشة، فقد صار في ذاته ما كان يبحث عنه في الآخرين.

وفي المساء قال له أخوه متبسّمًا:

ـ يا أبا شابي، لقد أصبحتَ "ذارميندار" هذه القرية.

ابتسم الصغير، وشعر بدفء يغمر قلبه. أدرك أن البطولة ليست قتالًا ولا إبرازَ عضلاتٍ، بل رحمة تمنح الناسَ الأمانَ، وكلمة تزرع في القلوب نورًا، وموقف يردّ الظلم دون أن يصنع ظالمًا جديدًا.

نام تلك الليلة مطمئنًّا، وفي خياله يرى ذارميندار في مكان بعيد يبتسم له، كأنما يقول:

لقد ورثتَ طريقي عزيزي، فتابع السير على دربي.

مرّ النسيم من نافذته مروزًاخفيفًا، حاملًا معه رائحة البطولة، كتحية صغيرة من عالمٍ بعيدٍ لا يغيب عنه النور.

..... ***** .....